Kilis 7 Aralık Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi | 2017/1 | CİLT: 3 | SAYI: 6 | s. 193-223

وَرَثَةُ الأَنبِيَاء ومُستقبلُ التَّرِكَةِ العَظِيمَة

EMAD GAZİ KANAAN
YRD. DOÇ. DR. KİLİS 7 ARALIK ÜNİVERSİTESİ İLAHİYAT FAKÜLTESİ
emadkanaan@kilis.edu.tr

الملخص
هدفت الدراسة إلى تقديم توصيفٍ سرديٍّ يوثّق حالة نهوض نخبة علماء الأمة بواجب الدعوة إلى الله تعالى على مدار العصور، وذلكً في ضوء هدي الكتاب والسنة من خلال فهمهم لمقاصد الدعوة الإسلامية الإصلاحية. واستخدم الباحث المنهج السرديَّ النقديَّ للتعرف إلى ماهية الفكر الإسلامي في توصيف رسالة العلماء المسلمين؛ ثم شَرَعَ بمقارنة واقع الأمة المسلمة بماضيها وحاضرها، مؤكداً أن ما تشهده الأمة من حالاتٍ شاذةٍ لمواقف بعض علماء السوء من قضايا الأمة المسلمة الكبرى المعاصرة هو ليس سوى نتيجة جهود منظمة تهدف لتشويه رسالة الإسلام الخاتمة؛ وقد أنجزت الدراسة بالاعتماد على منهج بحثي يقوم على التوثيق للأدلة الشرعية ثم تحليلها بهدف استخلاص المقاصد السامية منها. وخلصت الدراسة إلى تحديد هوية مؤسسات انتاج علماء السُّوء والتعريف بغاياتهم وتبيان سبل الوقاية من سمومهم الزعاف.

الكلمات المفتاحية: وَرَثَةُ الأَنبِيَاء - التَّرِكَةِ العَظِيمَة – العُلَماءُ العَامِلون – عُلَماءُ السُّوء.

PEYGAMBERLERİN MİRASÇILARI VE BÜYÜK MİRASIN GELECEĞİ
Özet
Bu çalışma, Kuran ve Sünnet ışığında seçkin âlimlerin ıslahçı İslâmî davetin maksatları vasıtasıyla asırlar boyu bu âlimlerin Allah Teâla'ya davet hareketini ortaya koymayı amaçlamaktadır. Araştırmacı bu çalışmada, müslüman âlimlerin mesajını aktarmada İslâmî metodu tespit etmeye çalışmış, bunu yaparken ise tümdengelim ve tümevarım yöntemiyle, eleştirel anlatım metodunu kullanmıştır. Daha sonra İslam ümmetinin geçmişi ile hali hazırdaki durumunu karşılaştırarak, bugün ümmetin şahit olduğu eşine az rastlanır hallerin bazı kötü âlimlerin büyük İslâm

ümmetinin problemlerine karşı tutumlarından kaynaklı olduğunu ve bunun sadece ve sadece İslâm mesajını kötü göstermek için yapılmış planlı çabalar olduğunu vurgulamıştır. Bu çalışma, yüce değerlerin çıkarılması hedefiyle önce şer' i delillere müracaat daha sonra onların tahlilleriyle araştırmacı metoda dayanarak meydana getirilmiştir. Son olarak araştırmada kötü âlimler tanıtılarak amaçları hakkında bilgi verilmiş ve onlardan korunma yolları açıklanmıştır.

Anahtar Kelimeler: Peygamberlerin Mirasçıları, Büyük Miras, Kötü Âlimler, İhlaslı Âlimler.

HEIRS OF THE PROPHETS AND THE FUTURE OF GREAT LEGACY

Absract

The study aimed to provide a descriptive description of the status of the rise of the nation's elite scholars in the duty of calling to God over the ages, in the light of the guidance of the book and the Sunnah through their understanding of the purposes of Islamic call for reform. The researcher used the critical narrative approach to identify the nature of Islamic thought in describing the message of Muslim scholars. He then proceeded to compare the reality of the Muslim Ummah with its past and present. He stressed that what the nation is witnessing is an anomaly of the attitudes of some bad scholars of the major Muslim Ummah issues. To distort the message of Islam conclusion; the study was completed using a research methodology based on the documentation of legal evidence and then analyzed with a view to extract the purposes of the higher ones. The study concluded by identifying the institutions of production of bad scientists and the definition of their goals and to identify ways to prevent their toxins.

Key Words: The Heirs of the Prophets - The Great Legacy - Working Scientists - Bad Scientists.

المقدمة

أمسى المسلمون اليوم على عتبات استحقاقٍ إنسانيّ مصيريّ، إذ إنهم على مشارف النهوض بمسؤولية ريادة البشرية مِن جديدٍ بعد ما سقطت دعاوى زعماء الأرض المعاصرين في أسفل دَرْكٍ تاريخيّ من التلفيق قد عرفته البشرية كافة، فقد أَصَّلَ الغرب والشرق المتقدِّم علميًّا أعتى شرائع الغابات، وأَرْعَنَ صور التناقض بين القَالِ والحَالِ.

والمسلمون في الوقت عينه – وهذا يُمَثِّلُ النصف الثاني من الحقيقة الصارخة – يقفون على شفا وادٍ سحيقٍ سيرجئ تفوّقهم الإنسانيَّ إلى دهور مديدة إذا ما ضيَّعوا هذه الفرصة النادرة للغاية تاركين زمام المبادرة لأُمَّة أخرى كي تتماثل لقيادة الخَلْقِ نحو عدالة إنسانية تتعطش البشرية جمعاء إلى التعايش المشترك في أكناف سعادتها الرَّشيدة.

وإن الله قد مَنَّ على البشرية بِبَعْثِه رسولاً خاتماً حمل إليهم شريعة غَرَّاءَ ترسي مختلف ضمانات المساواة بين الناس أيًّا كان عمق اختلافهم وشموله، ثُمَّ قَيَّضَ سبحانه لأُمَّة الإسلام وَرَثَةً استأمنهم عل تركة الوحيين العظيمة – بوصفهم موقعين عن ربِّ العالمين وسفراء عن الأنبياء – فأوسد إليهم أمر النهوض بفريضة دعوة الناس إلى دِيْن رَبِّ الناس.

وإن من هؤلاء العلماء المُسْتَخْلَفِيْنَ من أَدَّى أمانة الله تبارك وتعالى، وإن منهم من أَضَلَّهُ الله على عِلْم فخان الله ورسوله والمسلمين وأبناء البشرية قاطبة.

وقد قررت الشريعةُ الخاتمة أن الغُنْمَ بالغُرْمِ، والغُرْمُ بالغُنْمِ، وعليه: فهنيئاً لمن أوفى من العلماء بما عاهد الله عليه، وويلٌ لمن فَرَّطَ فاستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

مشكلة البحث:

لقد عرف أعداء الإسلام أثر دور علماء الأُمَّة المسلمة الرَّبانيين في تغيير مسار الأحداث، وقوتهم في لجم المبطلين، وحضورهم المثمر بين النَّاس، فأعدوا لذلك مكيدة جائرة، حيث احترفوا إنشاء مدارس ترعى هؤلاء الموسومين بعلماء المسلمين الجدد منذ نعومة أظفارهم، منفقين عليهم الرخيص والنفيس من أجل تأهيلهم الشرعي بداية، والذي ينبغي أن يكون مقنعاً للعامة من الجماهير، ثُمَّ إذا استوت عيدانهم الدخيلة قام أربابهم وأولياء نعمتهم بحقن أظفارهم الجارحة بسموم زعاف قاتلة، تُرْجَئُ مواسم فتكها بالمسلمين من أبناء دينهم إلى أيام كالحَات يمرُّ بها أسيادهم المصنّعين لهم في الخارج، أو أذنابهم ممن رضوا بأن يكونوا في خدمتهم من المسلمين في الداخل.

وعليه، فإن مشكلة البحث تتلخص في السؤال الآتي: **ما خطورة علماء السوء على الأمة المسلمة، وما دور العلماء الربانيين في مقارعتهم ونفي سمومهم؟**

أهمية البحث ومسوغاته:

تتلخص أهمية البحث ودوافع كتابته في النقاط الآتية:

التعريف بوَرَثَة الأَنبيَاء من العُلَماء العَاملين وأضدادهم من عُلَماءُ السُّوء.
إظهار واجب العلَماء الربانيين حيث وَقعت نوازل الأمة.
تبيان خطورة علماء السوء على الأمة المسلمة.

التعريف بثلة ميمونة من العلماء العاملين عبر الحديث عن مواقفهم المشهودة في حفظ الشريعة وأهلها المؤمنين، والذين تم اختيارهم وفق معيار دقيق هو إجماع الأمة على وافر علمهم ورشيد منهجهم وفائق أثرهم.

توصيف هوية مؤسسات صناعة العلماء السوء توثيق أهدافها المدمرة وتحديد آلياتها المشبوهة.

أهداف البحث:

يَنْشُدُ البحث تحقيق الهدفين الآتيين:
إظهار واجب العلماء الربانيين تجاه الإسلام وأهله.
تبيان خفايا مواقف علماء السوء الهدامة نحو قضايا الأمة المصيرية.

مصطلحات البحث:

ومن أهمها الآتي:
وَرَثَةُ الأَنبيَاء: هم خُلَّصُ العلماء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.
التَّرِكَة العَظِيمَة: هي الشريعة الخاتمة التي ورَّثها النبيُّ لعلماء الأمة المسلمة.

الدراسات السابقة:

من أهم الدراسات السابقة ذات الصلة التي وقع عليها الباحث ما يأتي:
عنوان البحث: دور العلماء في قيادة الأمة
الباحث: د. ناصر العمر
تاريخ النشر: 1428هـ

ملخص البحث: أجاب البحث عن السؤال الرئيس الآتي: مَنْ هم العلماء المعنيُّون بالفضل والتشريف؟

مبيناً أنهم: "ورثة الأنبياء" فهم الذين يرثونهم علماً وعملاً، ويقتدون بهم في السرّ والعلن، ويلتزمون منهجهم في الغضب والرضا والمنشط والمكره، ولا يكونوا كمَنْ **{يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}**[1]، أو كمن **{أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}**[2].

كما عالج البحث نقاطاً مهمة للغاية مثل:

1- تغييب دور العلماء.

2- العلماء والمشاريع المشتركة.

3- استقلال العلماء عامل مهم لتحقيق ريادة العلماء للأمة.

عنوان البحث: العلماء ورثة الأنبياء

الباحث: د. راغب السرجاني

تاريخ النشر: 2009م

ملخص البحث: أكد البحث أن العلم صفة الأنبياء وإن أعلى منزلة وأسمى رتبة في الخلق وبين البشر عند الله تعالى هي منزلة الأنبياء ورتبة النبوة، ولمكانة العلم ولأهميته القصوى ومكانته في ميزانه سبحانه وتعالى، فإن الله تعالى قد ربط في كتابه الكريم بين الأنبياء وصفة العلم، على أساس أنها صفة ثابتة ولازمة لهم، بل وضَّح سبحانه أن العلم هو أهم الصفات التي يتميز بها هؤلاء الأنبياء، وكيف لا والدور الرئيسي لهم في الدنيا أن يُعلّمُوا غيرهم؟

كما عالج البحث نقاطاً مهمة للغاية منها: ما بينه حول أن العلم هو ميزان التفاضل بين الخلق جميعاً، فقد امتنّ به الله تعالى على أُناس معينين واختصهم بالزيادة منه، وقد اصطفاهم سبحانه على غيرهم، فجعل -على سبيل المثال- مؤهلات القيادة عند طالوت عليه السلام هي العلم والقوة، فقال: **{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ}**[3].

---

[1] سورة الحج، الآية 11.

[2] سورة الأعراف، الآية 176.

[3] سورة البقرة، الآية 247.

المحتوى العلمي
تمهيد (الغُنْمُ بالغُرْم)

إن الله تعالى إذ رفعَ درجات أهل العلم بما تضمَّنته أروقة عقولهم من مفردات المعارف، وبما عقلته شغاف قلوبهم من متغيرات الأحوال، قال تعالى: {**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**}[4]، فإنه نَبَّهَ في مواطن عديدة إلى أن مدار التشريف لحملة العلم قائمٌ على هذه المُسَلَّمَة المانعة:

إن أَجْرَ العلماء الكبير المترتب على حُسْنِ التزامهم بحدود علمهم وقِيَمه، يقابله وعلى نحوٍ موازٍ ومكافئٍ وِزْرٌ عظيمٌ في حال تحلُّلِهم من فرائض وأخلاق ما خصهم الله تعالى به من نعمة العلم من دون غيرهم، قال تعالى: {**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**}[5].

إن العالم الذي سَالَتْ أَحْبَارُ هديه فروت عجاف العقول ورمضاء القلوب، حتى نَفَرَ النَّاس على عجل إلى أفياء دروبه، ومنارات هديه، يتلقَّفون بحرص حصادَ فكره، وغلالَ تجاربه، إن مَثَلَ هذا العالم مع كنوز معارفه، مَثَلُ الجذور والثّمار من الشجرة؛ فالمعارف التي يكتنزها العالم هي بمثابة الجذور الضاربة في صميم الأرض، والشجرة لا تحيا من دون ضَخّ جذورها ماءً في عروق أغصانها الباسقة، وإن إحياء هذه المعارف في سلوكيات العالم مَثَلُ الثّمار التي تفيض من عيون تلكم الأغصان، فالشجرة الخضراء تبعث الراحة في النَّفس، وثمارها تورث القوة في الجسد، فلا راحة للنفس مع جسد هَزْلٍ عليل، ولا تغني عن السقيم أزاهير حدائق العالم الفاتنة مجتمعة.

---

[4] سورة فاطر، الآية 28.

[5] سورة الأعراف، الآية 175– 178.

ويزداد هذا المعنى جلاءً بلطيف هذا التشبيه النَّبَويّ البليغ: (**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، مثل الأُترُجَّة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حُلوٌ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن، مثل الرَّيحانة، ريحها طيب وطعمها مُرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مُرٌّ**)[6].

العلم والعلماء

جاءت الشريعة الإسلاميَّة حاثَّةً على العلم، ومُرغّبةً في طلبه، وداعيةً إلى تَحصيله، فوَردت نُصوصٌ شرعيَّةٌ عدَّةٌ سواءً في القرآن الكريم أو في السُنّة النَّبويَّة الشَّريفة تُعلي من شأن العلم، وتُبيّن مَنزلة العُلماء وفَضلهم على من سواهم، ومن ذلك قول الله تعالى: {**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**}[7]، ولا يَخفى ما للعلماء من دور جليل في خدمة النَّاس ونفعهم، والرقيّ بالمُجتمع وتقدُّمه. والعلم كما عرَّفه علماء اللغة مُشتقٌ من الجذر اللغوي علم؛ فالعين واللام والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الأثر في الشيء الذي يُميّزه عن غيره، وعلَّم الرجل على الشيء علامةً؛ إذ ترك فيه أثرًا، والعلم نقيض الجهل، وعلَّم وأعلم أصلٌ واحدٌ بفارق أنَّ الإعلام مُتعلّقٌ بالإخبار السَّريع، في حين أنَّ التَّعليم مُتعلّقٌ بالتَّكثير والتكرار؛ بغية تحقُّق أَثره في النَّفس، والعلماء هم حَمَلة العلم ومُبلّغوه للنَّاس، والسَّاعون لنشره، ولهم من الفضل والأثر الطَيّب الكثير[8]، حتى وصَفَهم النَّبيّ عليه الصلَّاة والسَّلام بورثة الأنبياء.

العلماء ورثة الأنبياء

وصف النَّبي صلى الله عليه وسلم العلماء بأنَّهم ورثةُ الأنبياء؛ فقد جاءَ في الحَديث الشريف الذي رواه أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله أنَّه قال:

---

[6] مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، حديث: (1369).

[7] سورة الزمر، الآية 9.

[8] ابن فارس: مقاييس اللغة، صفحة، 4/ 88-89.

(من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا، سلك اللهُ به طريقًا من طُرُق الجنَّة، وإنَّ المَلائكةَ لَتضعُ أجنحتَها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإنَّ العَالمَ لَيستغفرُ له مَن في السموات، ومن في الأَرض، والحيتانُ في جوف الماء، وإنّ فضلَ العالم على العابد كَفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ، لم يُوَرّثوا دينارًا، ولا درهمًا، إنما وَرّثوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر).[9] وإنَّ من أعظَم خصائص ومَناقب العلماء أنَّهم ورثةٌ للأنبياء، وهم لم يَرثوا منهم مالاً أو مَتاعاً من متاع الدنيا، بل وَرثوا عنهم العلم، وذلك متمثّلٌ بأنَّ الأنبياء عليهم السَّلام خير خلق الله تعالى في الأرض؛ فورثتهم لا بدَّ أن يكونوا خير الخَلق من بعدهم وهم العلماء، كما أنَّه من المَعروف أنَّ الميراث يَنتقل من المَورّث إلى ورثته القريبين الذين يقومون مقامه من بعده، ولا يقدر على القيام مقام الرُّسل –عليهم السَّلام– وأداء رسالتهم ودورهم في التَّبليغ والدَّعوة إلى الله تعالى وتعليم دينه مثل الأنبياء، وفي اعتبار العلماء ورثةً للأنبياء إشارةٌ للناس وتنبيهٌ لهم بلزوم احترامهم وتوقيرهم، والرُّجوع إليهم في شؤونهم وطاعتهم، فهذا حقٌّ لهم كما هو حقٌّ للأنبياء عليهم السَّلام.

وقد جاءت في القرآن الكريم آياتٌ بشأن بعض الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ذكرت فعل الإرث والميراث، إلا أنَّ المعنى المُراد في الآيات هو ذات معنى الحديث؛ ميراث العلم والدّين، كما جاء في قول الله تعالى: {**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**}[10]. ومثل ذلك ما جاء في دعاء نبي الله زكريا–عليه السَّلام– كما جاء في سورة مريم: {**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**}[11]. فالميراث الذي سيورث من الأنبياء ليس سوى العلم والدّين بتعليمهما والدَّعوة إليهما، والسَّير على خطى الأنبياء في ذلك.

---

[9] أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث: (3175).

[10] سورة النمل، الآية 16

[11] سورة مريم، الآية –5 6.

الصحابة رضي الله عنهم كانوا يدركون أنَّ العلم ميراث النُّبوة وأنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء، لذا كانوا يتناوبون فيما بينهم على الحضور إلى مجلس رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام في مسجده؛ ليُعلّمهم أمور دينهم، وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: (**أنَّه مرَّ بسوق المدينة فوقَف عليها فقال: يا أهلَ السُّوق ما أعجَزَكم قالوا: وما ذاك يا أبا هريرَةَ؟ قال ذاك ميراثُ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقسَمُ وأنتم ههُنا ألا تذهَبونَ فتأخُذونَ نصيبَكم منه قالوا: وأينَ هو؟ قال: في المسجد، فخرَجوا سِراعًا ووقَف أبو هريرةَ لهم حتَّى رجَعوا فقال لهم: ما لكم؟ قالَوا: يا أبا هريرةَ فقد أتَيْنا المسجدَ فدخَلْنا فلم نرَ فيه شيئًا يُقسَمُ فقال لهم أبو هريرةَ: وما رأَيْتُم في المسجد أحدًا قالوا: بلى رأَيْنا قومًا يُصلُّونَ وقومًا يقرَؤونَ القرآنَ وقومًا يتذاكَرونَ الحلالَ والحرامَ فقال لهم أبو هريرةَ: وَيْحَكم فذاك ميراثُ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم**).[12] هذا؛ ولأنَّ العلماء ورثةُ الأنبياء، كان فقدهم بموتهم مصيبةً لا تُجبر وجَلالاً يخلّف في الأمة أعظم الأثر، بل إنَّ في فقدهم خَشيةً من قبض العلم وانحساره بين النّاس، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: (**إنَّ اللهَ لا ينزعُ العلمَ بعد أن أعطاكُموهُ انتزاعًا، ولكن ينتزعُه منهم مع قبض العلماء بعلمِهم، فيبقى ناسٌ جُهَّالٌ، يستفتونَ فيُفتون برأيهم، فيَضلّونَ ويُضلُّونَ**)[13].

إنَّ للعلماء مَنزلةً عَظيمةً ودرجةً رفيعةً بين النَّاس في الدنيا والآخرة، ومصداق ذلك قول الله تعالى: {**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُمْ وَالَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيرٌ**}[14]. كما أنَّ للعلماء سمةً يكسبهم إياها العلم، ألا وهي خشية الله تعالى ومخافته وتقواه، كما جاء في قوله تعالى: {**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**}[15]. ولا يخفى

---

[12] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: باب في فضل العالم والمتعلم، 123/1.

[13] البخاري: باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس، 100/9.

[14] سورة المجادلة، الآية 11.

[15] سورة فاطر، الآية 28.

ما للعلماء من أثرٍ بالغ في نفع مجتمعهم وتبصرتهم بأمور دينهم ودنياهم، ما جَعلهم بحقٍّ ورثةً لخَيرِ البشر الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

حُسْنُ الأداء في ظلال صَفَاء النيَّة

إن مدار العبادات بين القبول والإحباط متعلق بمتغيرين اثنين تبينهما الجملة المقتضبة الآتية: (حسن الأداء في ظلال صفاء النية)، حيث إن كليهما شرط لازم لتحقق القبول المُرام.

فمن نوى جهاداً لتكون كلمة الله هي العليا، غير أنه تَوَلَّى مُدْبِراً عند لقاء العدو، فعمله مُسفرٌ عن عدم القبول، قال الله عز وجل: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ**}[16]، وفي الحديث عن أبي هريرة أن النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (**اجتنبوا السَّبع المُوبقَات**) قالوا: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ فذكرهنَّ، وذكر فيهنَّ التولّي يوم الزَّحف)[17].

ومن بَيَّتَ النّيَةَ على الغزو في سبيل حصاد مديح النَّاس واستحسانهم، ثُمَّ قضى نحبه مُقْبِلاً غير مُدْبِرٍ، فعمله يوشك –أو قد حلَّت به– خطايا فساد النّيَة، وعن أبي موسى، قالَ: جاء رجل إلى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أحدنَا يقاتل غضباً، ويقاتل حَميَّةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً، فقال: (**من قَاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عز وجل**)[18].

وتزداد الصورة الأولى وضوحاً بحديث الصحابي المسيء صلاته، فعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل، فصلَّى، فسلَّم على النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، فَرَدَّ، وقال: (**ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ**)، فرجع يصلّي كَما صلَّى، ثم جاء، فسلَّم على النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: (**ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ**) ثلاثاً، فقال: والذي بعثك بالحق ما أُحْسِنُ غيره،

---

[16] سورة الأنفال، الآية 15.

[17] البيهقي: السنن الصغير، كتاب السير، باب تحريم الفرار من الزحف، حديث: (2878).

[18] البخاري: كتاب العلم، باب من سأل، حديث: (122).

فَعَلّمني، فقال: (**إذا قمت إلى الصلاة فكبّر، ثُمَّ اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن، ثُمَّ اركع حتى تطمئنَّ راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثُمَّ اسجد حتى تطمئنَّ ساجداً، ثُمَّ ارفع حتى تطمئنَّ جالساً، وافعل ذلك في صلاتك كلها**)[19].

إن مستوى الإتقان الذي يتحقق في أثناء أداء العمل على أتمّ وجه يؤدَّى من خلاله، يتماشى مع مستوى الدرجات التي ينالها العامل المجتهَد في الخلاص إلى أعلى منازل الإتقان المتاح، فالمسألة مَثَلُهَا مَثَلُ طالب في غرفة الامتحان، حيث خصصت عن كل إجابة درجة، وإن العلامَةَ التامَّةَ هي غاية كل مُتَعَلّم.

كما أنه يقرّب الصورة الثانية ما رواه سليمان بن يسار، قال: تفرَّج النَّاس عن أبي هريرة رضي الله عنه، فقال له ناتل الشامي: أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (**أول النَّاس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد في سبيل الله، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نعمه فَعَرَفَها، فقال: ما عملت فيها، قال: قاتلتُ فيك حتى قُتِلْتُ، وقال غيره: حتى اسْتَشْهَدتُ، فقال: كذبت؛ ولكنك قاتلت ليقال: هو جريء، وقد قيل، ثُمَّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النَّار.**

ورجل تعلَّم العلم، وعَلَّمه، وقرأ القرآن، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نعمه فَعَرَفَها، فقال: فما عملت فيها؟، قال: تعلمت فيك العلم، وعَلَّمته، وقرأت القرآن فيك، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال هو عالِم، وقد قيل، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثُمَّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النَّار.

ورجل أوسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نعمه فَعَرَفَها، قال: فما عملت فيه ؟، قال: ما تركت من سبيل تُحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثُمَّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النَّار)[20].

إننا في هذا المقام وفي ضوء وقوفنا على أثر النية الخالصة في قبول العمل يطلب إلينا على سبيل الوجوب أن نَفْقَهَ سِرَّ تخوُّف صاحب الإبانة الكبرى من

---

[19] البخاري: كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، حديث: (736).

[20] أبو عوانة: "مستخرج أبي عوانة", مبتدأ كتاب الجهاد، باب الخبر الدال على أن من قاتل للمغنم، حديث: (5997).

سوء الخاتمة، حيث قال الشيخ ابن بطة رحمه الله تعالى: اعلموا رحمنا الله وإياكم؛ أن من شأن المؤمنين وصفاتهم وجود الإيمان فيهم، ودوام الإشفاق على إيمانهم، وشدة الحذر على أديانهم، فقلوبهم وَجِلَةٌ من خوف السَّلْبِ، قد أحاط بهم الوَجَلُ، لا يدرون ما الله صانع بهم في بقية أعمارهم، حذرين من التزكية، متبعين لما أمرهم به مولاهم الكريم حين يقول: {**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**}[21]، خائفين من حلول مكر الله بهم في سوء الخاتمة، لا يدرون على ما يصبحون ويمسون، قد أورثهم ما حذَّرهم تبارك وتعالى الوَجَلَ في كل قدم حين يقول {**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**}[22]، فهم بالحال التي وصفهم بها عز وجل حيث يقول: {**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**}[23]، فهم يعملون الصالحات، ويخافون سلبها والرجوع عنها، ويجانبون الفواحش والمنكرات، وهم وَجِلُوْنَ من مواقعتها، وبذلك جاءت السنة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم[24].

وتبيّنُ قصة الصحابي المجاهد الذي ما صبر على ابتلاء الله له حقيقة أن الأمور بخواتيمها، وأن مدار التشريف يقدر في ضوء النتائج، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون، فاقتتلوا، فلما مال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل لا يدع لهم شَاذَّةً ولا فَاذَّةً[25] إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال: ما أجزأ منا اليوم أَحَدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول : (**أَمَا إِنَّه من أهل النَّار**)، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فَجُرِحَ الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثُمَّ تحامل على سيفه، فقتل نفسه.

---

[21] سورة النجم، الآية 32.

[22] سورة لقمان، الآية 34.

[23] سورة المؤمنون، الآية 60.

[24] ابن بطة: "الإبانة الكبرى"، باب الاستثناء في الإيمان، (2 / 862).

[25] شَاذَّةً ولا فَاذَّةً: الشاذة بتشديد المعجمة ما انفرد عن الجماعة، وبالفاء مثله ما لم يختلط بهم، والمعنى أنه لا يلقى شيئاً إلا قتله.

فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أشهد أَنَّكَ رسول الله، قال: (**وما ذاك؟**) قال: الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النَّار، فأعظم النَّاس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثُمَّ جُرِحَ جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه في الأرض، وذبابه بين ثدييه، ثُمَّ تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجَنَّة، فيما يبدو للنَّاس، وهو من أهل النَّار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النَّار، فيما يبدو للنَّاس، وهو من أهل الجَنَّة**)[26].

التناقضُ الهدَّام

إننا مدعوون اليوم – وربما بحالة إسعافية – إلى دقة التخطيط وحكمة التنفيذ، لإنفاذ ثورة عميقة وشاملة في بنيتنا الفكرية المتعلقة بضوابط التعامل مع السادة العلماء، وذلك من حيث ضرورة اكتساب مهارات التفريق المُنْصِف بين العالِم منهم ومُدَّعِي العِلم من جهة، ومن جهة أخرى من حيث الاجتهاد بغية التعافي من عيب قاتل فينا يأسرنا في أثناء تواصلنا معهم توجزه هذه المعادلةُ الخاطئةُ المُعْتَمَدَةُ من قِبَلنَا: (إن كل عالم هو شخص تَحْيَا فيه أفكاره رُوْحَاً، ومَبَادئُهُ مُمَارَسَةً، وقِيَمُهُ تَخَلُّقَاً).

إن العالم في الدِّين – وربما ينصرف ذهن القارئ الكريم بداية إلى هذا الصنف من العلماء – الذي ورث النَّاس منه – على سبيل المثال – ثقافة حسن معاشرة الزوجة من خلال العشرات من الأحاديث النَّبَوِيَّة الرائعة التي ما زال رجع صدى صوته يتردد في أذهانهم وهو يسهب في شرحها لنا، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لا يَفْرَكْ**[27] **مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقَاً رضي منها آخر**)[28]، وقوله: (**استوصوا بالنساء خيراً، فإنَّهُنَّ عندكم عَوَانٌ**[29])[30]، يُفْتَرَضُ

---

[26] البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، حديث: (2763).

[27] يَفْرَكْ: يُبْغِض.

[28] مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، حديث: (2750).

[29] عَوَان: جمع عانية، بمعنى الأسيرة.

[30] ابن ماجه: كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، حديث: (1847).

أن تكون أسرته حاضنةً نموذجيةً لمختلف أشكال التعاضد الأسري وألوان السعادة الزوجية، ثُمَّ إذا بتلاميذه المقربين أمام حقيقة صادمة، حيث إن الشيخ المعلّم هو زوج مَسَّ زوجته منه ظلم مبين، تراوح بين غِلْظَة في المُعَاشرة، وشُحّ في الإنفاق، وَجَورٍ في التعالي، ولعل ما خفي أعظم، فراحَ صوت النَّاس يهتفُ من حوله في مشهدٍ من الإنكار الممزوجِ بحسرةٍ:

وعالِمٌ بعلمه لم يَعْمَلَن مُعَذَّبٌ من قبل عُبَّادِ الوَثَن

وإن العالم في الطِبّ الذي أطلَّ على النَّاس عبر قنواتٍ إعلامية شتى مجتهداً في صرف الجماهير من المُتَلقين العُزَّل من العلوم الطبية عن أخطارٍ اجتماعيةٍ شائعة ضارةٍ ومحرمة ومدمّرة، كالتدخين، وشرب الخمرة، والولوجِ في الزنا، وغيرٍ ذلك، ها هو يَفْجَأُ جماهيره الغفيرة المتشبّثة بصالح وَعظه، ونافعِ نُصحه، حيث تثبَّتوا من أنه وعلى نحو صارخ يُتلفُ رئتيه بالتدخين، ويطفئ أنوارَ عقله بخمرةٍ مُهْذِيَة، ناهيك عمَّا شاع بين النَّاس من أنباء تردده على بيوت الرذيلة علماً أنه عضو مؤسس في جمعية المنذرين من شرور العلاقات الجنسية المحرمة وأهوالها، فارتدَّ النَّاس عليه منصرفين عن حسن الاستماع له، ولسان حالهم ينوحُ حِدَادَاً:

يا أيُّها الرجل المُعَلّمُ غيره هَلاَّ لنفسكَ كان ذا التعليم
لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتَي مثْلَهُ عارٌ عليك إذا فَعَلتَ عظيم

إننا نقف مذهولينَ قِبَلَ هذَا التناقض المذري في سلوك العلماء؛ ما يدفع بعضنا إلى الانقلاب على تاريخ طويل من حُبّنَا وولائنا لهم، فننحو منحى مغلوطاً، إذ نَرُدُّ لهم صاع نكوصهم عَمَّا أوهموا النَّاس بأنهم أرباب له من الفضائل وحسن الشمائل، بأصواعٍ من العداء القولي والعملي لهم، والأخطر من ذلك أن نرتدَّ نحن على أعقابنَا بعد إذ هدانا الله على أيديهم، فنعود عن حسن معاشرةٍ لزوجاتنا، قد كان لهم وافر الفضل في إقدامنا عليه، وعن إقلاعٍ عن التدخين ما كنا لنهجر بغيض كِيْرِه، وخبيثَ إدمانه، لولا نافع تحذيرهم المَشْفُوْعِ بالأدلة على سوء عقباه.

إننا لن نبرح أن نرفع إلى أهل العلم الأفاضل نداء عابر سبيل مضطر قد استجار من ظلمات أزقة طريق يجهل معالمه بأنوار قناديل العارفين بسنن الله الكونية من هؤلاء العلماء، قال تعالى: {**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**}[31]، نسألهم بحرقة ورجاء، وبحبهم لله ورسوله، ونحن الذين نهلنا وَجْدَ ذلك الحُبّ من ضفافِ مَعِيْنِ دمع وَجْدِهم الجاري بسخاء وإخلاص في سبيل الله وحده، نتوسل إليهم أن لا يتركوا – للحظة تذكر – يد صاحب الرسالة الخاتمة؛ التي عاهدوا الله سبحانه أن يشدُّوا عليها بيد، وأن يبسطوا إلينا يدهم الأخرى كي تُقِلُّنَا بِمَعِيَّةِ حُسْنِ اتباعهم، وصادقِ تَمَثُّلهم إلى شواطئ النجاة من عذاب يوم عظيم.

إننا وقد أُنْبِتْنَا نباتاً حسناً على منهج الإمام ابن عساكر القائل: "إن لحومَ العلماءِ مسمومة، وسُنَّةُ الله في هَتْكِ أستار منتقصيهم معلومة، وأنَّ من أطال لسانَه في العلماءِ بالثَّلبِ، بلاه الله قبل موته بموت القلب"([32])، فإننا نرفع على استحياء إلى مقام السادة العلماء وصية إمام عظيم حفظ الله الإسلام به كما حفظه من قبله بجدّه أبي بكر الصّدّيق، فقد كتب الإمام أحمد بن حنبل إلى سعيد بن يعقوب فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم: من أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل إلى سعيد بن يعقوب، أما بعد: فإن الدنيا داء، والسلطان داء، والعالم طبيب، فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره، والسلام عليك"[33].

ونكلل رفيف آمالنا، وحنين أحلامنا، ليوم يسود فيه العلماء على النَّاس عامة، وعلى أصحاب المال والجاه خاصة، بعد أن يَسُودوا على أهواء أنفسهم أولاً، بنصح متوجس قلق على الأُمَّة يُقَدّمُهُ خليفتها الراشد الرابع علي رضي الله عنه، الذي خط له التاريخ بماء من ذهب هذه الأيقونة الأَخَّاذة: "يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما عَلِم ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العِلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عَمَلُهُم عِلْمَهُم، وتخالف سريرتهم

---

[31] سورة فاطر، الآية 28.

[32] النووي: "المجموع شرح المهذب"، (24/1).

[33] ابن أبي يعلى: "طبقات الحنابلة"، (168/1).

علانيتهم، يجلسون حلَقاً فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى"[34].

منهج البَصْريّ في الصَّدح بالحق

إن ومضات العَلَماء العاملين فَي تاريخ أُمَّة الإسلام أكثر من أن تحصى في خواطر رسالة احتضنتها وريقات كتيب، إذ إنها بحاجة إلى موسوعة ممنهجة، يقوم على إنجازها فريق من المتخصصين في الشريعة والتاريخ الإسلامي، وتتبنى رعايتها مؤسسات علمية عريقة وضخمة، غير أن الربيع ببعض العطر يختصر، وبعض الأعمال قد تُدَلّلُ على سائر الأحوال، وربما تُقْرَأُ الرسائل من عناوينها، لذلك نجتهد رأينا متكلين على الله ربنا، في تسليط الضوء على بعض الصور المشرقة الفائقة الجمال، والمواقف النادرة الخصال، لنخبة من هؤلاء الرجال الربانيين، الذين أنعم الله عليهم بنعمة التثبيت والتأييد وحسن الخاتمة، قال تعالى: {**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**}[35]، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: (**وإن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالِم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً، ولا درهماً، ورَّثوا العلم، فمن أخذهُ أخذَ بحَظّ وافر**)[36].

لقد كان العلماء من السلف الصالح مرابطينً على ثغور الحق، لا يبرحون خنادقهم المكينة أيا كانت الضغوطات، ومهما ارتفع ثمن المغريات، فلا موت في سبيل الله يرهبهم بل هو غاية منيتهم، ولا سجنٌ مظلمٌ يحجبهم إذ هو غَارُ خلوتهم، ولا نفيٌ عن الديار يحزنهم فهو فرصة سانحة لنشر دعوتهم، إنهم رجال الله الذين كان لهم قدم صدق عند مولاهم، فأعزهم الله في الدارين وأكرمهم[37].

---

[34] الدارمي: باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، حديث: (401).

[35] سورة الأنعام، الآية 90.

[36] أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث: (3175).

[37] دعانا الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان إلى الاهتمام بسير السلف والخلف من العلماء العاملين؛ إذ قال طيب الله

ومنهم سيدنا الحسن بن يسار البَصْرِيُّ، أبو سعيد، تابعي جليل، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأُمَّة وسيد أهل زمانه علماً وعملاً، ولد بالمدينة المنورة سنة (21هـ)، ونشأ بوادي القُرى، وأُمُّهُ اسمها خَيْرَةُ مولاةٌ لأمّ سَلَمَةَ أُمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالوا: فربَّما خرجت أُمُّهُ في شغل فيبكيَ، فتعطيهَ أُمُّ سَلَمَةَ ثديها، فَيَرونَ أن تلك الفصاحة والأدب من ذلك، توفي في البصرة في أول رجب سنة (110هـ).

روى صاحب "**وفيات الأعيان**"[38]: أَنَّهُ لَمَّا ولِّي عمر بن هَبيرَةَ الفزاريُّ العراق وأضيفت إليه خراسان، وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك، استدعى الحَسَنَ البَصْرِيَّ ومُحَمَّد بن سيرين والشعبي وذلك في سنة ثلاثمئة، فقال لهم: إن يزيداً خليفة الله استخلفه على عباده، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولّاني ما ترون! فيكتب إليَّ بالأمر من أمره فأقلّده ما تقلّده من ذلك الأمر، فما ترون؟

فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تَقيَّةٌ.

فقال ابن هَبيرَةَ: ما تقول يا حَسَنُ؟.

فقال: يا ابن هَبيرَةَ خَف الله في يزيدَ ولا تَخَفْ يزيدَ في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيدَ لا يمنعك من الله، وأَوْشَكَ أن يبعث إليك مَلَكاً فَيُزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثُمَّ لا ينجيك إلا عملك؛ يا ابن هَبيرَةَ إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده، فلا تركبَنَّ دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فأجازهم ابن هَبيرَةَ وأضعف جائزة الحَسَنِ، فقال الشعبي لابن سيرين: سَفْسَفْنَا له فَسَفْسَفَ لنا[39].

ثراه: (الحكايات عن العلماء ومحاسنهم، أحب إلي من كثير من الفقه)، فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب: آداب معاشرة الإخوان، 299/10.

[38] ابن خَلّكان: "وفيات الأعيان"، (72/2).

[39] السَفْسَافُ: الرَّديء من كل شيء، والأمر الحقير، وكل عمل دون الإحكام سَفْسَافٌ، والسَفْسَافُ المراد هنا: الرَّديء من العطية.

أثر منهج الخلف في مواقف السلف

وما أشبه الأيام الخوالي من أمجاد المسلمين بأيام أُخَرَ، فما زال الرباط قائماً على الثغور تنتقل فيه الرايات الخفاقات من يد يمنى بيضاء، إلى شقيقة لها حفظت الوديعة، وأدت الأمانة، فإن حال القوم الأشراف من السادةً العلماء العاملين أنهم في نزال مع الباطل لا هدنة فيه، فهم لا يصدّقون له حديثاً، ولا يأمنون له جانباً، ولا تأخذهم في مقارعته لَوْمَةُ لَائم.

إن الرمز الذي سنحط رحالنا على أعتاب مجده هو خليفة الَحَسَنِ البَصْرِيّ في العراق العلامة المجاهد الشيخ أَمجدُ بن مُحَمَّد الزَّهَاوي، الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل سيف الله المسلول خالد بن الوليد المخزوميّ رضي الله عن الصحابة والآل أجمعين.

ولد الفقيه الزَّهَاوي ببغداد سنة (1883م)، ونهل العلم عن والده الشيخ الجليل مُحَمَّد بن سعيد الزَّهَاوي مفتي بغداد، ومات هذا العالم المقدام رحمه الله سنة (1967م)، حيث ووُرِيَ الثَّرى في مقبرة الإمام الأعظم ببغداد.

وقد حَدَثَ في العراق في أعقاب ثورة (14) تموز، سنة (1958م)، أن خرج الإلحاديون في أكبر مظاهرة شهدتها بغداد آنذاك، وهم يهتفون تأييداً للرئيس عبد الكريم قاسم[40]، وبدا السفير السوفييتي في تلك المظاهرة مُبْتَهِجَاً، إذ طَفِقَ يُلَوّحُ بيده على جماهير المتظاهرين الداعمين لخلع عباءة الإسلام عن العراق وكأنه رئيس الدولة المُنتَخَب.

وقد سيطر دعاة الإلحاد على الشارع العراقي، وراحوا يُسَوّقون ثقافة الكفر وأخلاقه عبر نوافذ إعلامية متنوعة سخَّرتها لهم السلطات العراقية، وذلك بعدما أوقعوا بالعلماء المسلمين خاصة صنوفاً من ألوان العذاب الجسدي، وأفناناً من أشكال الأذى المعنوي، فعادة الحكام الظلمة في قمع العلماء المخلصين قديمة، وإبداعاتهم في تكميم الأفواه نوعية، ولقد خرج اللواء

[40] ولد ببغداد سنة (1332هـ)، وشارك في القضاء على الحكم الملكي في العراق، وقَتَلَ آخر ملوك الهاشميين ببغداد فيصل بن غازي في (14) تموز سنة (1958م)، مات رمياً بالرصاص في (8) شباط سنة (1963م).

الركن محمود شيت خطاب من سجونهم المظلمة مُهَشَّمَةً عِظَامُهُ، حيث عَدَّ الأطباء في جسده قرابة (43) كَسْراً وتفتُتاً.

وإزاء هذه الأهوال الجسام التي أمطرت المجتمع العراقي بوابل من الأخطار، دعا العالِم العامل المجاهد الزَّهَاوي العلماء إلى مقر رابطة علماء العراق بغية مناقشة الظروف المستجدة، ووضع آليات وقائية للتعامل مع نتائجها، حيث خلص المجتمعون إلى قرار يقضي بالتوجه للقاء رئيس الدولة عبد الكريم قاسم.

وقد خرج إليه جمهرة من العلماء منهم الشيخ فؤاد الآلوسي، والشيخ إبراهيم المدرِّس، والشيخ ياسين المنصور، وذلك برئاسة الشيخ الزَّهَاوي بوصفه رئيس جمعية رابطة علماء العراق.

ثُمَّ استضافهم في وزارة الدفاع العقيد وصفي طاهر مرافق عبد الكريم قاسم، وأخذ يجاملهم بقوله: إن الزعيم قاسم يحمل القرآن في جيبه دائماً، وهنالك بَهَتَهُ الشيخ الزَّهَاوي بردٍ حاسم في لهجة مؤثّرة أخرسته، حيث خاطبه بكبرياء قائلاً: إن القرآن الكريم لا يُحْمَلُ في الجيب، بل في القلب، وما فيه يجب أن يُطَبَّقَ قولاً وعملاً.

وبعد برهة من الزمن دخل الزعيم عبد الكريم قاسم، ليفاجئه الشيخان، الزَّهَاوي والآلوسي بعدم النهوض لاستقباله ترحاباً، لكنَّ الزعيم بادرهم بالتقدُّم إليهما ومصافحتهما، ثُمَّ استقرَّ جالساً إلى جانب الشيخ الزَّهَاوي.

وبعد الترحيب بهما، قال بلطف وتودُّدٍ: أنتم علماؤنا، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى مساعدتكم وتأييدكم.

فقال الشيخ الزَّهَاوي من غير أن يقدّم أي مجاملات مُمْتَهَنَة: المملكة خربت، لقد انتشر الكفر والإلحاد في البلد، فكيف نؤيدكم!؟ وكانت أطراف الشيخ ترتجف غضباً، وفي صوته نبرةُ تَحَدٍّ وحُنْقٍ.

فقال الزعيم: لا يوجد ما تَدَّعون!!

عند ذلك أشار الشيخ الزَّهَاوي إلى الشيخ المُدَرِّس، مخاطباً إياه: قدّم له كتب (المسقوف)، فقدَّم الشيخ المُدَرِّس للزعيم كتاب: (أين الله)، وكتاباً آخر فيه الكثير من الطعن والهجوم على الإسلام.

فقال الزعيم مُسَوّغاً: البلد في حرية.... ردُّوا عليهم!!

فقال الشيخ الزَّهَاوي: كيف نردُّ عليهم، والصحف والمجلات الإسلامية معطَّلة، والعلماء يهانون في المساجد؟!

قال الزعيم: الصحف غير معطَّلة!!

وهنا تدخل الشيخ المُدَرِّس قائلاً: جريدة الفجر الجديد معطَّلة، وصاحبها كان معنا في رابطة العلماء، وطلب منا إبلاغك بذلك.

وهنا نادى الزعيم رئيس أركان الجيش أحمد صالح العبدي، وسأله: هل حَقَّاً جريدة الفجر الجديد معطَّلة؟ فقال: نعم، فطلب الزعيم منه رفع هذا المنع، ثُمَّ قال: أَحضر لي محضر مقابلة السفير الأمريكي.

وجيء بالمحضر، وتناوله الزعيم قاسم، وما كاد يقرأ نصف صفحة منه حتى ثارت ثائرة الشيخ الزَّهَاوي، فخاطب الزعيم بلهجة حادَّة صارخاً في وجهه:

ما لنا وللسفير الأمريكي؟! لقد جئنا لنخبرك بما حَلَّ بالبلد من دمار.

فَأَذْعَنَ الزعيم للشيخ، وأخذ يستمع إلى ما يشرحه من أحداث مُعْضِلَةٍ أَلَمَّتْ بالعراق، ويقترح على الزعيم حلولاً لها.

ثُمَّ أردف الشيخ الزَّهَاوي في ختام اللقاء الحاسم مع الزعيم قاسم قائلاً: إن هذا البلد مسلم، ولا تستطيع أي قوة في الدنيا أن تجعله شُيُوعيًّا، وسوف نقف جميعاً نحن العلماء في مواجهة الشُّيُوعيَّة والاستعمار حتى آخر لحظة من حياتنا، حتى يرجع البلد إلى الإسلام مرة أخرى[41].

إن التفسير المنطقي الذي يُفَكِّكُ شيفرة ثبات هؤلاء العلماء أمام أهوال مغامرة اجتياح خصوصيات الحكَّام وعمومياتهم من ناحية، ومناهضة أماني الهوى والشياطين المتكالبة على مواقف العلماء الثابتة؛ تريد أن تنهش من جسدهم الطاهر حتى توهنه فيركع لنزوات النَّفس الأمارة بالسوء من ناحية ثانية، هو وجود إيمان بلغ غايته، فلا تطالُهُ فتمسُّهُ يدُ عابث بحال، ولا تُخْضعُهُ وساوسُ حاقد من أيّ وجه، إن اليقين عندهم بمنازلَ عالية مكينة هي مُوْطَنُهُ، وإن اليقين عندهم مَقَرُّهُ سدرةٌ آمنةٌ، حتى أنه لا يزيده في بصائرهم جلاءً، وفي

[41] مازن مَكّي العاني: أمجد الزَّهَاوي، العلامة المجاهد وشيخ العراق، (32، 106– 108).

أفئدتهم رسوخاً، لو كشف لهم الحجاب، إن هذا اليقين عندهم مثل غذائهم، وهوائهم، وهو الشفاء النموذجي لوهن عزيمتهم، وتذبذب إيمانهم.

صفحة من تاريخ إمام الزاهدين

إن رباط العلماء العاملينَ على ثغور الحق، يشدُّ أَزْره تعفُّفٌ عن مدّ اليد لحاكم جائر، حيث يتسوّل العالم منه اليوم لقيمات، ليتقاضاها الحاكم المهووس بالسلطة لاحقاً شهادات زور محرَّمات، وذلك في أقبح وجوه الرّبا وضروبه لعنةً ووبالاً، وقد عَلَّق الرواة الثقات على لوحة الشرف من تاريخ المسلمين نجوماً لا تُجَاوِرُ أفلاكها إلا هِمَمُ الرجال المنتخبين من رَبِّ العالمين على وجه التحديد.

ويُقَرّبُ ذاك المشهد الآسر إلى مداركنا الذي قد نخاله قبساً من الخيال، أو طيفاً من أحلام اليقظة، أحد أبهى نجوم أُمَّة الإسلام وألمعها، إنه العالِم الرَّبانيُّ أبو علي التَّيمِيُّ، الفُضَيْلُ بن عَياض، وهو إمامٌ قدوةٌ من كبار السَّادات الصُّلحاء، ولد بسمرقند، ونشأ بأَبِيْوَر، كتب الحديث في الكوفة، ثم انتقل إلى مكة، حتى توفي فيها سنة (178هـ).

وقد حدثنا عنه سفيان بن عيينة قال: دعانا هارون الرشيد فدخلنا عليه، ودخل الفُضَيْلُ آخرنا مُقَنّعَاً رأسه بردائه، فقال لي: يا سفيان، وأيهم أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت إلى الرشيد.

فقال له: يا حسن الوجه، أنت الذي أَمْرُ هذه الأُمَّة في يدك وعنقك، لقد تقلدت أمراً عظيماً، فبكى الرشيد، ثُمَّ أُتِيَ كُلُّ رجلٍ منَّا ببدرة[42]، فَكُلٌّ قَبلَهَا إلا الفُضَيْلُ، فقال الرشيد: يا أبا علي إن لم تستحلَّ أخذها فأعطها ذا دَيْنٍ، أو أشبع بها جائعاً، أو اكسُ بها عارياً، فاستعفاه منها، فَلَمَّا خرجنا قلتُ: يا أبا علي، أخطأت، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البِرّ، فأخذ بلحيتي، ثم قال: يا أبا مُحَمَّد، أنت فقيه البلد والمنظور إليه، وتغلط مثل هذا الغلط، لو طابت لأولئك لطابت لي.

---

[42] البدرة: هو كيس من المال.

ويُحْكَى أن الرشيد قال له يوماً: ما أزهدك! فقال الفُضَيْلُ: أنت أزهد مني، قال: وكيف ذلك!، قال: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة، والدنيا فانية والآخرة باقية.

لقد صغرت الدنيا وبخس ثمنها عنده، لذلك مضى لا يتزلَّف لذي سلطان، ولا يتقرَّب لصاحب مال، وهو القائل: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ حتى لا أحاسب عليها، لكنت أَتَقَذَّرُهَا كما يتقذَّرُ أحدكم الجيفة إذا مَرَّ بها أن تصيب ثوبه، وإن مخافته من عذاب يوم عظيم، قد أدرك الإمام الفُضَيْلُ حقيقة سعير ناره، وضنك أهواله، تفسّرُ لنا أسرار الدوافع الكامنة من وراء زهده، وتطهُّره عن اللُّهاث وراء دنيا رخيصة، وعدم مخافته في الله بطش المتجبرين، وكيف لا يكون منه ذلك وهو الذي كان يُبْصرُ – بفضل ربّه عليه – آثار ذنوبه تُعَجَّلُ له في جميع أحواله، قال رحمه الله: إني لأعصى الله تعالى؛ فأعرف ذلك في خُلُقِ حماري وخادمي[43].

مدرسة المُجَددُ السَّابع

إن أهل العلم كثيرون بعلمهم، وحاضرون عند الله والنَّاس بحسن تَمَثُّلِهم، وما أجمل أن يجمع العالم بين الخيرين؛ علمٌ مكينٌ، وورعٌ رصينٌ، وهذا التماهي بين هاتين الحُسْنَيَيْنِ يتجلَّى في صورٍ نادرةٍ جداً، لا يطيق أن يُقَرِّبها إلى أبصارنا وبصائرنا، إلا أهلَ قاماتٍ مجيدةٍ من نظراء شيخ الإسلام الحافظ، الزاهد، الورع، النَّاسك، المجتهد المطلق، والإمام القدوة، مجد الدين بن دقيق العيد، أبو الفتوح، المنفلوطيُّ المصريُّ، المولود سنة (625هـ) في مدينة يَنْبُع على ساحل بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) في السعودية، والذي نشأ بِقَوْصٍ[44]، وتعلم بدمشق والإسكندرية والقاهرة، ثُمَّ ولِّي قضاء الديار المصرية سنة (695هـ)، فاستمر إلى أن توفي بالقاهرة سنة (702هـ)، ودفن بالقَرَافَةِ[45].

---

[43] ابن خَلّكان: "وفيات الأعيان" (48/4).

[44] قَوْص: مدينة كبيرة، شرقي النيل، تعد قصبة صعيد مصر.

[45] القَرَافَة: هي مقبرة أهل مصر، وبها قبر الشافعي.

قال العلامة تاج الدين السُّبْكي: ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة[46].

وترفد تزكية السُّبْكِيّ أرجوزة العلامة جلال الدِّين السُيُوطِيّ التي ذكر فيها المُجَدِّدِيْنَ في الإسلامَ، والتي جاء فيها:

والسَّابعُ الرَّاقي إلى المَرَاقي ابن دَقيق العيد باتفاق

ومن ظريف أخباره أنه كان يخاطب عامة النَّاسَ، ومنهم السلطان فمن دونه، بقوله: يا إنسان، وإذا كان المخاطب فقيهاً كبيراً، قال يا فقيه، وتلك كلمة لا يسمح بها إلا لابن الرِّفعَةِ ونحوه، وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي يا إمام ويخصُّهُ بها.

وجاء في روايات بأسه في سبيل الله تعالى، وحفظه كرامة العلم والعلماء خبرٌ عجبٌ، حيث كان سلطان مصر إذا رآه من على البُعْد قام له، فإذا وصلَ عنده قَبَّلَ السلطان يده، فيقول له الشيخ مُثَمِّنَاً أدبه: هذا خيرٌ لك، هذا يَنْفَعُكَ![47].

وقد حصل أن أراد السلطان مُحَمَّد بن قلاوون أن يجمع المال من النَّاس من أجل حرب التتار ولو بالقرض، وهذا شبيه بما فعله قطز من قبل تحت إشراف الإمام العز بن عبد السلام شيخ الإمام ابن دقيق العيد، فجمع السلطان ابن قلاوون العلماء كي يحظى بتأييدهم ودعمهم لهذا المشروع الضرائبي.

فتماثل قِبَلَهُ الإمام بن دقيق العيد قائلاً: لا يمكن أن تأخذ الأموال من النَّاس إلا بعد أن تجمع الأموال من السلاطين والأمراء، ومن نسائهم.

ثُمَّ بَهَتَ الإمام السلطان بقوله: إن من أمرائكم من جهَّز ابنته لِتُزَفَّ إلى زوجها، وعمل بحفلها الجواهر، واللآلئ، والحُليَّ الفاخرة، وجعل معها الأواني من الذهب والفضة، وإن منكم من رصَّع مَدَاسَ زوجته بالجوهر، فإذا أتيت بهذه الأموال ولم تكفِ ننتقل إلى أموال الرعية[48].

---

[46] يريد الإشارة إلى ما أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الملاحم، من باب ما يذكر في قرن المائة، حديث: (3761)، حيث روى أبو هريرة عن رسول الله ’ قال: "إن الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".

[47] السّبْكي: "طبقات الشافعية الكبرى"، (209/9).

[48] سلمان العودة: "سلطان العلماء"، الفصل التاسع، (55).

نعم! والله رافع السماء بلا عمد!!!... فإما يكون العلماء على سُدَّة هذا الكبرياء الذي يحفظ هيبة الشريعة، ويحمي أبناء الأُمَّة من تجبر السلاطين، وإما أن نبتهل إلى الله باسمه الأعظم أن يذهب بعلماء السوء ويبدلنا خيراً منهم، وهم الذين طعنوا الأُمَّة في الظهر من خنجرهم المسموم، فأوهى الجرح جسدها، ولطَّخَ الدم الحرام مجدها، فبكى شاعرها لأنين أُمَّته نحيباً صاخباً جاء رَجْعُ صداه مجلجلاً:

يُرَمْرِمُ من فُتَات الكفر قُوتاً ... وَيَشْرَبُ من كؤوسهمُ الثُّمَالةْ
يُقبّلُ رَاحَةَ الطَّاغُوت حيناً ... وَيَلْثُمُ دون ما خَجَل نعالهْ

إن هَؤلاء الأئمة الأشرافَ الذين وثَّقوا بالعمل صدق إيمَانهم، هم العلماء الذين يأتلف النَّاس إلى فسحة مجالسهم، ويتبرَّكُ المتوسمون بهم خيراً بمؤانستهم، وعندهم تدار رحى معارك الحق، ويستنزل الغيث بألطاف دعائهم، ولا تفتر الألسن عن ذكرهم بالخير ما ذُكِرَ الخير وأهله بين النَّاس، هم أمل الأُمَّة بقيادة ثورة العودة إلى الرِّيادة من جديد، عسى أن تؤوب الأمور إلى نصابها، وتقوم الأرض بعدل الإسلام، بعد رزوحها لعقودٍ عجافٍ تحت نير الجاهليات المتباينة.

هوية مؤسسات إنتاج علماء السُّوء

إن الشمس المتفرّدة بقيادة مصير نهار صيف مستعر؛ لا تطيقُ عَيْنٌ مبصرةٌ إنكار أطياف أنوارها، ولا يكابر – إلا مَيّتٌ – على حقيقة قسوة ألسنة لهيبها، إنها سيدة في السماء قد بايعتها أيادي الأرض طوعاً، وأحلام الكواكب مجتمعة.

وإن من لا يُقِرُّ بتكالب الأُمَم المهيمنة على الميادين العسكرية والإعلامية والاقتصادية اليوم على الأُمَّة المَسلمة كما يتكالب الأَكَلَةُ على قَصْعَتِهِمْ هو شخصٌ يَزُجُّ نفسه في طابور الضَّالينَ المُضلّينَ الذين عرفوا الحَقَّ فحادوا عن جادته، ثُمَّ عكفوا على إغواء غيرهم من خلال سياسة تقوم على تشويه الحقائق، وتنميق الأباطيل.

وإن الحملة العالمية الجائرة على المسلمين هي قديمة متجددة، فالحَقُّ مُحَارَبٌ، وأعداؤهُ هَوُيَّتُهُم معروفةٌ.

فقد أبغض فرعون رسالة موسى عليه السلام وعاداها لأنها هزت كرسي مدعي الألوهية، وأبو جهل أبغض الإسلام وتشبث بصنمه لأنه سَوَّاهُ مع بشرٍ طالما استعبدهم.

والإسلام اليوم يتبنَّى شريعة تجاهر صراحة بتحريم المتاجرة بأرواح النَّاس وأعراضهم وأخلاقهم وأرزاقهم، وهو عينه ما تَتَقَوّتُ عليه الأُمَمُ القوية التي مُكِّنَ لها في الأرض بإذن ربّها.

لقد ثبت الإسلام ثبوتاً مذهلاً يكاد يكون أسطورياً لندرة قرائنه في تاريخ البشرية أمام أعتى الحملات العسكرية التتارية والصليبية السابقة والآنية، وهو في هذه السنوات العجاف يقارع حروباً ضارية مُنَظَّمَةً هي أنكى وأدهى، اعتمدت منهج الحرب الفكرية التي تَدُسُّ سُمَّهَا في أنقى أنواع العسل، وتُفَخِّخُ أجمل المروج الخضراء وأخصبها، وتُعَكِّرُ أصفى أغادير الماء الزلال، وتُنْشِبُ أظفارها في جسد أرقّ أزاهير الدنيا وأطيبها عبقاً.

وإن هذه الحرب الخبيثة المُنْكَرَةَ في عوزٍ إلى مناهجَ مقاومةٍ خَلَّاقة تقوم على اعتماد سياساتٍ حصيفةٍ تستطيع بموجبها أن تَفُلَّ سيوفهم الخفيةً، وأن تكسر عُصيَّهُم الباغيةً.

يقول المفكر المسلم يوسف القرضاوي مُشَخِّصَاً هذه الحالة النادرة: "ومن أهم المعارك التي خاضها الإسلام في هذا القرن (العشرين) معركته الدامية في مقاومة أخطر أنواع الاستعمار، وهو الاستعمار أو الغزو الفكري، الذي يعبر عنه بكلمة واحدة هي (التغريب) الذي هدف إلى تغيير هوية الأُمَّة ومسارها، ونقلها من الشرق إلى الغرب، ومن الإسلام إلى المسيحية أو – على الصحيح – إلى اللادينية.

إن هذا النوع من الاستعمار أو الغزو أشد وأنكى من الاستعمار العسكري والسياسي، فإن هذا يحتل الأرض وذاك يحتل العقل والنَّفس، واحتلال الأرض يُرى ويُحسُّ فيحارب ويقاوم، واحتلال العقل قَلَّمَا يُحَسُّ به، فيستسلم له"[49].

[49] يوسف القرضاوي: "أمتنا بين قرنين"، (77).

لقد أدرك المسلمون في ضوء الأحداث المتسارعة في العقود الأخيرة أنهم على شفا السقوط في واد سحيق قد يسلبهم أرضهم على نحو غير مباشر من خلال سرقة خيراتها، ويبدّل لهم هويتهم عبر تزوير تاريخهم وتحطيم مُثُلهم الكريمة وقِيَمهم النَّبيلَةَ، ومن هنا هَبَّتْ صحوةٌ إسلاميةٌ أصيلةٌ قرأت الواقع بحذاقة، وأفادت من الماضي بدراية، فعمدت إلى مقارعة هذه المشاريع المعادية كاشفة اللّثام عن وجوهٍ قبيحة تستر بها، حيث إنها أسمتها مرة الحضارة، وفي أخرى الديمقراطيةً، وفيً ثالثة التقدم وهلم جرا، وطفق شباب الإسلام يفاخرون الأرض بجهادهم الفكري، والعسكري، ضد هؤلاء الغزاة المبطلون وأزيز هتافهم يردد تارة حداء أمير الشعراء شوقي:

قفْ دون رأيك في الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدةٌ وجهادُ

وتَارة أخرى يَسْمَعُ العابر بجوارِ ثغورِ رباطهم نشيد الشاعر المهلل:

ولست بخالع درعي وسيفي إلى أَنْ يخلعَ اللَّيل النَّهار

وإن الأُمَّةَ إذا لم تَلتف من حول علمائها العاملين الربانيين، وتمضي في قوافل أنوارهم المباركة، فإن البديل المدمر الملتحف بأقنعة التضليل سيسود بين المؤمنين، باذلاً طاقة جهده في تحريف النصوص، وتأصيل الأباطيل، وهنا يأتينا الوحي ليحسم الشك باليقين، ويجلي غباشة المشهد من خلال تحذير دقيق من هذه الفتنة العظيمة التي يبينها للعالمين خير ولد آدم، سيد الأولين والآخرين، وإمام المرسلين، مُحَمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام فصل جاء فيه: **(سيأتي على النَّاس سنوات خدَّاعات، يصدَّق فيها الكاذبً، ويكَذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرُّوبِضَةُ)**، قيل: وما الرُّوبِضَةُ؟ قال: **(الرجل التَّافه في أمر العامَّة)**[50].

إن الأُمَّة المسلمة اليوم تعاني من كيد حاقد رهيب، يسعى إلى اجتثاث الإسلام –عقيدة وعبادات ومعاملات وأخلاقً– من جذورِه الضاربة في أعماق الحضارة الإنسانية قاطبة، وهو مكرٌ خبيثٌ في جوهره وأسِنٌ في مظهره ينهض

[50] ابن ماجه: كتاب الفتن، باب شدة الزمان، حديث: (4034)، وانظر؛ "الفوائد" الشهير بـ "الغيلانيات" لأبي بكر الشافعي، مجلس آخر، حديث: (307).

على مقوّماتٍ مشبوهةٍ تقدّم لنا تعريفاً دقيقاً حول نشأته وأنشطته معاً الأفكار الآتية:

أولاً: لقد تواطأت أنظمة عالمية مهيمنة على مقومات الأرض ومقَدَّراتها معتمدةً على التعاضد والتعاون النوعي فيما بينها من أجل إقصاء المسلمين عن منصَّة قيادة العالم، أو حتى الإسهام الفاعل في توصيف مشكلاته أو معالجتها، وإن من غرائب الأقدار أن تلكم الدول الكبرى لا تجمعها جامعة أبداً، فهي متنازعة فيما بينها قد فرقتها أطماعٌ غير مشروعة كثيرة، غير أن دأبها غدا واضحاً، فهي تقتتل فيما بينها على كل شيء مهما كان تافهاً، وتأتلف على قتل مواطن الخير في المسلمين مهما كانت مهمة.

ثانياً: اعتمدت تلكم القوى الكبرى في مقاومة المَدّ الإسلاميّ على سياسة قبيحة تقوم على التخطيط الجادّ والمنظَّم، فهي تدرك قوة الإسلام عدوها، وبأس أتباعه المسلمين، ولهذا سخَّرت بغية إنفاذ برامجها الظالمة طاقات من الخبرات البشرية، والوسائل التقنية، وأنفقت على مشروعها الأثيم مبالغ طائلة، والذي ما كان أحراها أن تنفقه في سبيل تلاقح الأفكار، وتلاقي الفرقاء، من أجل حماية المجتمع الإنساني من أهوال باتت تقرع بابه المثلَّم صباح مساء.

ثالثاً: كان لصناعة علماء المسلمين وإنتاجهم، ثُمَّ جودة دبلجتهم، وذلك التأكيد والتحقق من الالتزام بدقة إخراجهم، نصيب أسود الأرض مجتمعةً من الاهتمام والمتابعة الحثيثة من قبل الشرق والغرب، فقد قرأ الغرب الحاقد، والشرق التائه، أثر دور علماء الأُمَّة المسلمة الرَّبانيين في تغيير مسار الأحداث، وقوتهم في لجم المبطلين، وحضورهم المثمر بين النَّاس، فأعد الغرب لذلك مكيدة ثعبان جريح، ومكر ثعلب حاقد، حيث احترف أعداء الإسلام إنشاء مدارس ترعى هؤلاء الموسومين بعلماء المسلمين الجدد منذ نعومة أظفارهم، منفقين عليهم الرخيص والنفيس من أجل تأهيلهم الشرعي بداية، والذي ينبغي أن يكون مقنعاً للعامة من الجماهير، ثُمَّ إذا استوت عيدانهم الدخيلة قام أربابهم وأولياء نعمتهم بحقن أظفارهم الجارحة بسموم زعاف قاتلة، تُرْجَئُ مواسم فتكها بالمسلمين من أبناء دينهم إلى أيام كالحات يمرُّ بها أسيادهم

المصنّعين لهم في الخارج، أو أذنابهم ممن رضوا بأن يكونوا في خدمتهم من المسلَمين في الداخل.

ثُمَّ يبدأ العالم الدَّعيُّ المزعوم بممارسة أنشطته الدعوية التقليدية في المجتمع المسلم منتظراً من أسياده في الداخل والخارج تكليفه بالمهام الخاصة التي قد يُسَخَّرُ لإنجازها مهما كانت أخطارها فادحة على أبناء المسلمين في الحاضر والمستقبل، فهو عبدٌ مطيعٌ في أيام الاستقرار وراحة البال، وانتحاريٌّ مغوارٌ في الأزمات والمُلمَّات، إنه يكتسي جُبَّةَ العلماء الصُّلحاء نهاراً، ويُبْطِنُ نوايا أبي رِغال[51] الدجَّال ليلاً.

فالله الله في أُمَّةَ الإسلام أن يسودها هؤلاء الرعاء، الذين حنثوا بما عاهدوا الله عليه، فضاعت أنسابهم الدينية، وأحبطت أعمالهم الأخروية وما أحوجنا اليوم أكثر من سائر الأيام الخوالي إلى التعاضد الموجَّه نحو تطويق هؤلاء الأدعياء المرتزقة لدرء عظيم كيدهم بأبناء دينهم بعد بيعهم ذممهم وعقيدتهم بأبخس الأثمان لعدوٍّ لا يعرف إلّاً ولا ذمَّةً، وقد استشعر الشيخ الغزالي قديماً مخاطر الطريق ليناشد أُمَّتَهَ التزام الوحدة بغية مواجهة مشاريع التهويد والتنصير والتضليل وغيرها، فيقول رحمه الله تعالى: (ولا أعرف أياماً المسلمون فيها فقراء إلى التعاون والتَّوادّ، أشد من هذه الأيام النَّكِدَة)[52].

إن العلماء ورثة الأنبياء، يرابطون بإخلاص – عَزَّ نظيره – على أسخن الجبهات وأخطرها، وأنت لن تجدهم إذا وددت التعرف إليهم إلا في الصفوف الأولى حصراً، وهم قائمون على أمر الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها،

---

[51] أبو رِغَال: لَمَّا مَرَّ أبرهة الحبشيُّ بالطائف ماضياً إلى مكة خرج إليه مسعود بن متعب في رجال من ثقيف وطلبوا منه السّلم، فأعطاهم مُنْيَتَهُم، ووجَّهوا معه أبا رِغَال دليلاً لهم، وقد هلك أبو رِغَال بالمغمّس, ودفن هناك سنة 50 قبل الهجرة، فالعرب ترجم قبره بين الطائف ومكة من ذلك الوقت إلى الآن، يقولُ حسان بن ثابت في هجاء ثقيف:

إِذَا الثَّقَفِيُّ فَاخَرَكُمْ فَقُولُوا هَلُمَّ نَعُدُّ أُمَّ أَبِي رِغَالِ

وقال جريرَ في هجاء الفرزدق:

أَبُوكُمْ أَخْبَثُ الآبَاءِ طُرًّا وأَنْتُمْ مُشْبِهُوهُ عَلَى مثال

إذا ماتَ الفَرَزدَقُ فَارجُموهُ كَما تَرمونَ قَبرَ أَبي رِغَال

وقال سَيدنا عمر الفاروق لَغيلان بن سَلَمَةَ: لئن لم ترجع في مالك لأرجمنَّ قبرك كما يرجم قَبر أبي رِغَال.

فاللهم عليك بأحفاد أبي رِغَال الخونة إلى يوم الدين، ومن اشترى بضاعتهم الحرام من أعداء المسلمين.

[52] مُحَمَّد الغزالي: "الحَقُّ المُرُّ"، (105).

هذه هي باختصار شديد هويتهم، تعرفهم بتضحياتهم، فهم رجال الله في أيام الله، دماؤهم نبراس أبناء المسلمين، وعِلْمُهُم شاهد على ورعهم، نهارهم جهاد بالكلمات والمواقف الإلهية المصدر، وهم عُمَّار الليالي الساكنات بالنحيب الكسير الذي يرضي الله مولاهم، ويفرح الملائكة المقربين الذاكرين، ويطرب آذان قوم مؤمنين.

نتائج البحث وتوصياته

خلص الباحث إلى جملة من النتائج والتوصيات، ومن أهمها:

مفهوم دور العلماء المسلمين في صلاح الأمة وريادتها مبحث فائق الأهمية ينبغي على الباحثين المتخصصين في العلوم الإسلامية معالجته وفق الرؤية الإسلامية الرشيدة.

وثَّقت الدراسة نجاح مناهج التربية الإسلامية الشاملة والعميقة في تخريج أجيال من علماء الأمة المسلمة الذين تحلو بأعلى درجات الإخلاص للرسالة الخاتمة عبر زمام مبادراتهم الإيجابية الفاعلة.

توصي الدراسة بأهمية إنجاز دراسات تحليلية تأصيلية نقدية تفنّد دعوى عجز الفكر التربوي الإسلامي في العصور الأخيرة عن تربية أجيال من العلماء العاملين الذين ينذرون أنفسهم رخيصة لحماية الشريعة الإسلامية وصيانة دماء وأعراض وأموال أهلها من المسلمين، وهو ما يؤكد صلاحية الشريعة الإسلامية الخاتمة لبناء الإنسان الصالح الناجح في كل عصر ومكان.

مصادر البحث و مراجعه

القرآن الكريم.

أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي: كتاب الزهد الكبير، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الثالثة، بيروت، 1996م.

أحمد بن الحسين البيهقي: دلائل النُّبُوَّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت،1405هـ.

تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السُّبْكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود مُحَمَّد الطناحي وعبد الفتاح مُحَمَّد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، السعودية، 1413هـ.

الحاكم مُحَمَّد بن عبد الله النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1990م.

سعيد بن علي القحطاني: بيان عقيدة أهل السنة والجماعة ولزوم اتباعها في ضوء الكتاب والسُّنَّة، مطبعة سفير، الرياض، د – ت.

سليمان بن الأشعث أبو داود السّجِسْتاني: سنن أبي داود، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، المَكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د– ت.

شمس الدين أحمد ابن خلّكان البرمكي الإربلي: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د – ت.

عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، السعودية، 2000م.

عبيد الله بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري: الإبانة الكبرى، تحقيق رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، دار الراية، الرياض، 1998م.

مازن مَكّي العاني: أمجد الزَّهَاوي: العلامة المجاهد وشيخ العراق، دار الرواق، لبنان، 1999م.

مُحَمَّد الغزالي: الحق المر، دار الريان، الطبعة الأولى، القاهرة، 1987م.

مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دار العلوم الإنسانية، الطبعة الثانية، دمشق، 1993م.

مُحَمَّد بن سعد المعروف بابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق: زياد مُحَمَّد منصور، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، المدينة المنورة، 1408م.

مُحَمَّد بن عمر بن واقد السهمي الواقدي: المغازي، دار الأعلمي، الطبعة الثالثة، بيروت، 1989م.

مُحَمَّد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد مُحَمَّد شاكر ومُحَمَّد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر، 1975م.

مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، د – ت.

مُحَمَّد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجة، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، د–ت.

مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الدعوة، دار سحنون، الطبعة الثانية، القاهرة، 1992م.

مصطفى السباعي: دروس من الحياة، دار الوراق – دار النيربين، الطبعة الأولى، بيروت، 2002م.

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري أبو عوانة: مستخرج أبي عوانة، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت، 1998م.

يوسف القرضاوي: أمتنا بين قرنين، دار الشرق، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000م.